اللحن الضائع

كان من منهاج حياتنا اليومى أن نلتقى . وكانت الندوة مقهى أنيقاً بشارع أكسفورد فى لندن . وكان للقائنا ميعاد موقوت لم نتخلف عنه طوال سنوات التحصيل الثلاث الطيبة التى قضيناها فى تلك المدينة الخالدة . وكان هو يمضى أكثر ساعات نهاره وطرفاً من الليل فى مختبر تجاربه الكيمياوية ، وكنت أنا أمضى مثل ذلك من أيام الشباب الجاد فى مكتبات الجامعة الحاشدة . وكان حرصنا على اللقاء فى الندوة المختارة عظيما ودائماً على رغم كل ما قد يستجد من الظروف . وكنا نتفق كثيراً فى مجالس السمر العامرة تلك ، وكنا نختلف كثيراً أيضاً ، وقد نمضى عنها غضاباً وقد نمضى فرحين . ولكننا كنا نعود ، فى الركن المعين والموعد الموقوت . ولم أنقطع أنا عن السعى إلى تلك الندوة منذ تعارفنا ، ولم ينقطع عن مثل ذلك صاحبى غير مرة واحدة ! وما كانت هذه المرة لتذكر لو لم تكن على النحو الذى تمت عليه . ومع بعد العهد بما قد تم وبالجو العامر بالسعادة الذى كان يغمرنا يومئذ ، فما زالت ذكراها عالقة بذهنى كأنها وقعت بالأمس القريب ! لقد انفرط بعدها عقد صفائنا ، وما أحسب أنه عائد أبداً . . .

. . . فى مساء اليوم السابق لانقطاعه كنا جلوساً على العادة فى الندى المختار . وكان الحديث يشتمل على أفانين شتى من الجد والفكاهة ، وقطع من الموسيقى الهزجة تنتشر فى جو الندى ، ومن حولنا صخب الناس ، وضجيج السيارات وهمس رواد المكان . وفجأة أدارت العاملة الموكلة بالاسطوانات اسطوانة لم يلبث صاحبى عند سماعها أن وقف حديثه بغتة لأجلها ، وأنصت إنصاتاً نقله مما حوله إلى جو خاص . وأمضى فى سهومه نحواً من دقيقة تجهمت فى خلالها أسارير وجهه الأسمر ، وانعقد حاجباه واتسعت عيناه السوداوان ، وارتسمت على جبينه آثار الرجوع إلى حلم قديم . ثم أدار وجهه نحوى وقال : « اصغ . . هذه

قطعة من قطع ريمسكى كورساكوف الخالدة . هـذه « شهر زاد » ؛ عروس الشرق تتهادى فى موكب زفاف غربى . »

وأنصتّ — ولم يكن لى علم كعلمـه بالموسيقى — فأعجبنى ما سمعت ، واستخفتنى ألحانها ، وخيل إلى أنى فى جو علوى ، لا هو شرقى خالص ولا غربى خالص ، بل مزاج إنسانى رفيع . وأنصت أيضاً فشعرت أنى لا أسمع هـذه الألحان سمعاً فقط ، ولكن حواسى الخمس جميعاً قد تمازجت فهى حس واحد واستحسان أتم لهذه الأنغام .

ونبهنى صاحبى ، قال : « اسمع هذا الترديد » وجعل يساير الاسطوانة بصفير أوقعه بحساب الموسيقى الرائعة ، هـذا ترديد لليالى الألف التى قضتها شهر زاد المرأة الحكيمة مع الملك الفذ شهر يار . ومضى وقت — لست أدرى ما مداه — ثم تخافتت الألحان وتخافتت حتى غمرتها ضجة المكان . وظل صاحبى ساهماً ، يعاود صفيره بين آونة وأخرى . ولم أشأ أن أقاطعه ؛ فقد كانت تنم هيأته على استحسان ما هو فيه ، وكنت أنا أيضاً قد استحسنت اللحن فأعجبنى ترديده فسكتّ وأصغيت.

ثم أفاق صاحبى من حلمه ، وقال : « هذا اللحن كان ضائعاً — أعنى من ذا كرتى — وقد وجدته وسأجدها معـه ! هـذا اللحن الذى هزك هنـا وسط لندن قد كان هزنى من قبل . لقد سمعته قبل ست سنين على حفافى الصحراء فى مصر الجديدة . وظل فعله يستجد فىّ كلما سمعته وأينما سمعتـه . وقد حفظت الترديد كما حفظت أكثر أنغام القطعة . وكان من رأيى إذا جلست وحدى أن أعيدها على نفسى . وذات مرة — وقبل أن ألقاك بعامين — كان القطار يقلنى من باريس إلى هذه الأرض ، ولم أبال الناس الذين معى أول الأمر ، فطاف بذهنى أن أردد لحنى المختار ، ففعلت ، وظللت أعيد ترديده وأنا أستطيب ذلك ، حتى ذكرت أن ذلك قد لا يطيب لمن حولى ، فكففت خجلا . وكنا ثمانية ركاب فى المقصورة : شابين مصريين وزوجتيهما وأنا وثلاث سيدات بينهن إنجليزية واحدة . وقد بادرتنى الانجليزية — وكانت أصباهن وأحلاهن — فقالت : « عفواً ، أليس هذا الترديد من قطعة شهر زاد ؟ » قلت : « بلى ! بعينه » . فردت تقول : « رائع ! » قلت : « صدقت » . واستمر الحديث بيننا ، وجر الحديث إلى معرفة ، والمعرفة إلى دعوة لبيتها ، ثم أفضى ذلك إلى صداقة لم تلبث أن انقلبت حباً آخر الأمر . وكانت شمس مصر الحبيبة لم يزل أثرها فى نفسى وقلبى ، ودفئها

الذى يبعث الحياة كنت لا أزال أنعم به ، فكان حبى من أثر ذلك عنيفاً . . . »

قال صاحبى : « وفجأة ألفيتنى ذات يوم أفقد اللحن الأثير ، وأفقد دين فى ذلك اليوم نفسه ! »

. . . قال : « كنا قد اتفقتنا على أن نلتقى على رصيف إحدى محطات القطار الكهربائى تحت الأرض ، وتوافينا فى الموعد المضروب ومضيت بها إلى حديقة سان جيمس ، وكان يوماً تضن بمثله الطبيعة على الناس فى انجلترا : زانته الشمس الساطعة ، وانقشعت عن وجه السماء الغيوم غير قطع صغيرة زادت زرقتها روعه . وكانت ساعة المغرب تاجاً لذلك النهار المشمس ، فقد تجمعت دكنة الغيوم وزرقة السماء وذهب الأصيل لا خراج مشهد من المشاهد النادرة فى تلك الآفاق . وكنا — دين وأنا — نستجلى ذلك المشهد فى مجلسنا فى الحديقة حتى غابت الشمس واضمحلت حمرة الشفق ، ثم لم تلبث الظلمة أن خيمت بعد أن غلبت بقايا النور فطمستها ، فأمسينا فى عتمة تتبين العين من خلالها الأشباح لا تفاصيل المرئيات . واستدارت دين نحوى وقالت : « أعجبك المشهد الجليل ؟ »

« قلت : نعم ! قالت : نعم وحسب !

«والواقع أن «نعم» وحدها لم تكن تكفى للاعراب عن شعور المرء و إعجابه بما قد رأى فى ذلك المساء ، غير أن عاملين اجتمعا بغم ثقيل على صدرى فى تلك الساعة فجاء الجواب مختصراً على هذا النحو ؛ فغلبة الظلام على النور تكرب نفسى دائماً ؛ وقد سعيت إلى التفريج عنها باللحن الأثير فضاعت كل محاولة عبثاً لاستعادته يومئذ ، لم أستطع قط أن أذكره ، وفقدته ، وفقدتها معه أيضاً كما قلت . فقد اشتد الضيق بصدرى حتى لم أكد أطيقها ، فكان كل جواب صدر منى لها خشناً ، وكل عبارة قاسية ، وكل لفظة وخزاً أليماً لنفسها الرقيقة . وقد أدهشها ذلك منى ، وتلطفت بى ، وحاولت أن تترضانى وتستأنسنى ، فلم يجد ذلك . و أمست آثار الظلماء تخيم على ، وفقدان اللحن يكربنى . وقد حاولت دين أن تذهب ما بى بمحاولات شتى من عندها ، فاقترحت أن نسير فى مماشى الحديقة الناضرة ، فقمت و إياها ، وكان الظلام قد أحكم إرخاء سدوله وشمل الحديقة كلها ، وأطبقت معه الغيوم على السماء إطباقاً ، فانتشرت كثيفة على صفحتها ، وحجبت كل نجم كان قد بدأ متلألأ فيها . وسرنا فى الماشى التى كانت تبدو كالأخاديد

السود ، وأوغلنا ونحن ساكتان وكل همي أن أستعيد لحنى الضائع لأسترد بذلك طمأنينة نفسى ، ولكن كل محاولة كانت باطلة . وبدا لى أن كل جهد أبذله فيضيع يزيد كرب نفسى ويبعدنى عن اللحن بعداً ينضاف إلىّ به هم جديد . وشعرت أنى فى ذلك الجو الذى لفه السكون والظلام حبيس، وأن رئتىّ لا تجدان من الهواء الطلق كفاية تعينهما على التنفس ، فأنا أختنق . فالتفتت إلى دين وقلت لها : « دين ! إنى تعب . جد تعب ؛ فهل تأذنى لى فى الاضطجاع على العشب خمس دقائق فقط ؟ »

« قالت وقد أخذتها الدهشة : ولماذا ؟ ولكنه مبلول وأخشى عليك البرد . فلم أجبها وأفلتّ يدى المشبوكة فى يدها وجلست متخاذلا ، ثم ما لبثت أن اضطجعت .

« كان المشهد رائعاً : ظلمات شاملة فى السماء ، تتلقاها أشباح الشجر القائم عند ملتقى الأفق فى الجانب الشرقى ، ويقابلها من الغرب خط من الأنوار المنبعثة من الشارع البعيد . وكنت — وأنا مضطجع — أستطيع أن أتبين قوام دين الجميل وبعض قسمات وجهها ، وبخاصة بريق عينيها وطرف أنفها ، وكانت تطل على من عليائها ، فكأنها مخلوقة هابطة من الظلمات العلا . . أعنى السموات . وظلت مدة وأنا سادر أتأمل وأحلم ، وقد اختلطت الحقائق فى عينى بالرؤى ؛ فقد كان للظلماء التى صبغت كل شىء بلون حجابها القاتم أثر فى ذلك الخلط .

« فى تلك الضجعة على أعشاب حديقة سان جيمس فقط تبينت أن البشر خلق علوى وأن موضعه السموات . لقد رأيت الأرض نجما سابحاً فى فضاء رحب كما يصورها الفلكيون حقا . إذاً فليس بين أرضنا الأم وبين نجوم السموات من فرق فى الأصل . . كل شىء بدا لعينى يمتّ بصلة للأشياء الأخرى التى فى هذا الكون : الأرض والانسان والنبات والنجوم كلها خلق واحد ومادة واحدة .

ونبهنى من حلمى صوت دين الرقيق يقول : « مضت عشرون دقيقة . وأخشى أن يصيبك البرد فقم . » وسكتت ، فجعلت أصداء كلماتها تتردد فى أذنى وفى نفسى . وقمت فخرجنا وتعشينا وعاد إلى نفسى بعض هدوئها وإن كنت ما أزال شاعراً بأن فى قرارتها شيئاً نفيساً مفقوداً . »

قال : « ومضت على تلك الليلة قرابة ثلاث سنين . لم أذكر اللحن الضائع ولم أر فى خلالها دين . ولم أسع إلى سماع الأسطوانة التى تحفظه — وذلك

ميسور — لأن سحر المصادفة يضيع منى وتفوتنى متعته . كانت المصادفة هى التى وافقت بينى وبين دين وهذا اللحن ! وقد مضى اللحن وضاع وسط ملايين من ألحان الكون الرحب التائهة . ومضت دين أيضاً وضاعت وسط هذه الملايين من سكان لندن . وما بى من حيلة إلى خلق المصادفة ، وإن كنت قادراً على إيجاد اللحن . ولكنى أرى المصادفة قد جاءت الآن : عاد اللحن ، وإنى لعلى يقين بأنها هى أيضاً ستعود . »

فى الليلة الثالثة غاب صاحبى على غير عادته عن الندى ، وامتد أمد غيابه أسبوعاً بأكمله . وقد قلق أصحابى لغيابه ، وافتقدوه وافتقدته أنا أيضاً بأشد مما افتقدوه ، ولكن كان فى نفسى من حس الطمأنينة بالتقاء الحبيبين وعودة الصفاء بينهما ما لم يكن مثله فى قلوب الآخرين . . . وصح ما قد توهمت وأحسست ، فقدتبينت أنه نعم بصفاء لقياها طوال ذلك الأسبوع ؛ وعاد ليطمئننا ثم يستأذننا فى الغيبة من جديد . . . وكان ذلك إيذاناً بانفراط العقد ، وقد كان !

فخرى شهاب